الفصل السابع والعشرون بعد المئة

الامثال

و (المثل) لون من ألوان الحكمة . وهو يقابل (مشل) في العبرانية،ومعنى آخر هو الحكمة والأساطير والقصص ذو المغزى . ولا يشترط في المثل أن يكون نثراً ، فقد يكون شعراً . وفي الموارد الاسلامية أمثلة جاهلية كثيرة من النوعين، لم يصل أي مثل منه مدوناً في نص جاهلي[1] .

وللحكماء المذكورين أمثلة كثيرة ترد في كتب الأدب والمواعظ والأمثال . وقد شرح غرضها أصحاب الموارد التي ذكرتها، وتعرض الرواة للقصص المروي عنها . غير ان من الصعب التثبت من صحة نسبة تلك الأمثال الى أولئك الحكماء والتثبت من صحة هذا القصص المروي عنها .

وكلمة المثل من المماثلة . وهو الشيء المثيل لشيء يشابهه ، والشيء الذي يضرب لشيء مثلاً ، فيجعل مثله[2] ، والأصل فيه التشبيه : ويقابله (مشل) (مشال) Mashal في العبرانية ، و Parabole في اليونانية ، ومعناها المماثلة والمشابهة ، أي المعنى الوارد للفظة في العربية . والغاية من الإهتداء بما فيه من حكمة ومن

---

١ « والمثل : الشيء الذي يضرب لشيء مثلا فيجعل مثله » ، اللسان (١١/٦١٠ وما بعدها) « صادر » ، نهاية الارب (٣/٢ وما بعدها) ، كتاب جمهرة الامثال ، لابي هلال العسكري ، (القاهرة ١٩٦٤ م) ، (١/٧) .

٢ اللسان (١١/٦١٠ وما بعدها) ، (مثل) .

حسن توجيه ، ومثل أخلاقية للسير على هديها في الحياة[1] . وقد ضربت التوراة الأمثال للناس للاتعاظ بها والأخذ بما فيها من عبر . ورد في سفر (حزقيال) : « هو ذا كل ضارب مثل يضرب مثلاً عليك قائلاً : مثل الأم بنتها »[2] ، وجاءت الأمثال في الأناجيل فورد : « في هذا يصدق القول : إن واحداً يزرع وآخر يحصده »[3] .

وقد لخص الاصحاح الأول من سفر (الأمثال) الغاية من ضرب الأمثال بقوله: « لمعرفة حكمة وأدب ، لادراك أقوال الفهم ، لقبول تأديب المعرفة والعدل والحق والاستقامة ، لتعطي الجهال ذكاءً والشاب معرفة وتدبراً ، لفهم المثل واللغز أقوال الحكماء وغوامضهم: مخافة الرب رأس المعرفة . أما الجاهلون فيحتقرون الحكمة والأدب »[4] . فالأمور المذكورة ، تمثل الغاية التي يتوخاها ضراب الأمثال من الأمثال : وقد جعلت أسفار الأمثال المثل : مخافة الرب رأس المعرفة أول أمثالها : وهو في العربية : رأس الحكمة مخافة الله .

ونجد في سفر (أمثال) كلاماً للحكماء ، هو مزيج من أمثلة وحكم وألغاز ، دون أن يشير الى أسماء أصحابه[5] ، ونجد مثل ذلك في الأدب العربي . وقد اشتهر أبناء الشرق بالحكمة عند العبرانيين .

والمثل بعد ، هو عقل ضاربه ، وثقافة البيئة التي ظهر فيها . ولهذا نجد الأمثال متباينة مختلفة حسب تنوع القوم الذين ظهر بينهم . ففي البيئة التجارية يكون المثل من هذه البيئة في الأغلب، وفي البيئة الزراعية يكون المثل مشرباً بروح المزارعين، وفي البادية تكون الأمثال ذات طبيعة بدوية . ومن هنا اختلفت أمثال قريش عن أمثال الأعراب ، وأمثال عرب العراق عن أمثال أهل العربية الجنوبية ، وهكذا . ولهذا فإن للمثل في نظر المؤرخ قيمة كبيرة من حيث انه يرشده الى مظاهر تفكير من ضرب بينهم ، ويعرفه بمبلغ ثقافة قائليه .

ولما كانت الأمثال مرآة لعقلية زمانها ولعقلية من ينسب قول المثل اليه ، أو من

---

١ Hastings, p. 767.
٢ حزقيال ، الاصحاح السادس عشر ، الاية ٤٤ .
٣ انجيل يوحنا ٤ ، الاية ٣٧ .
٤ أمثال ، الاصحاح الاول ، الاية الاولى وما بعدها .
٥ أمثال ، الاصحاح الثاني والعشرون ، والاصحاح الرابع والعشرون .

ضرب به المثل . تباينت في البلاغة وفي قوة التعبير وعمق المعنى ، وفي الفكرة ، فصار بعضها آية في الحكمة وفي قوة البيان وفي عمق المغزى والمعنى ، وصار بعض منها بسيطاً تافهاً . ونجد هذه الحالة في أمثال كل الأمم . إذ ان المثل لا يصدر عن طبقة معينة ، بل قد يأتي من رجل جاهل بسيط ، وقد ينسب الى غبي بليد أو الى شخص من سواد الناس اتخذ رمزاً للتعبير عن ناحية من نواحي الحياة ، أو نموذجاً يعبر عن طبقة من الطبقات . وانما المهم في رواج المثل وفي بقائه، أن يكون منبعثاً عن واقع حال ، معبراً عن رأي سديد ، قصير قدر الامكان مركزاً له وقع حسن على السمع ، يصلح أن يكون مثلاً لكل زمان ومكان . فيروج ويدوم ، وقد يتخذ مثلاً من أمثلة الحكمة ، وهو كلما قصر ، سهل حفظه وطال عمره .

وأفضل المثل السائر ، أوجزه ، وأحكمه أصدقه ، وقولهم : مثل شرود ، وشارد ، أي سائر لا يرد كالجمل الصعب الشارد الذي لا يكاد يعرض له ولا يرد . وقد تأتي الأمثال محكمة إذا تولاها الفصحاء من الناس ، وإذا جاءت في الشعر ، سهل حفظها [1] .

والأمثال مادة مهمة غنية في الأدب الجاهلي والاسلامي . وفي القرآن الكريم أمثلة كثيرة ضربت للناس للتفكر والتعقل ، وهي تدل على ما لها من أهمية تعليمية في العقل العربي . والأمثال المضروبة مرجع لمن يريد الوقوف على بعض الأمثلة التي استعملها الجاهليون . وفي الحديث النبوي مادة مهمة تمدّ هذا الباحث بمادة غزيرة عن المثل عند الجاهليين [2] .

و « الأمثال من حكمة العرب في الجاهلية والاسلام ، وبها كانت تعارض كلامها ، فتبلغ بها ما حاولت من حاجاتها في النطق بكناية بغير تصريح، فيجتمع لها بذلك ثلاث خلال : ايجاز اللفظ ، واصابة المعنى ، وحسن التشبيه » [3] . فالأمثال اذن عند الجاهليين نوع من أنواع الحكمة السائرة بين الناس . يقولها السيد والمسود ، البارز والخامل ، وهي تحفظ بسهولة ولا يحتاج المرء لتعلمها الى

---

١ العمدة (١/٢٨٠ وما بعدها) .
٢ المستطرف في كل فن مستظرف (١/٢٧ وما بعدها) .
٣ المزهر (١/٢٣٤) .

مهارة وذكاء . وكان لحفّاظ الأمثال مقام عندهم ، لأنهم ممن وهبوا بياناً ناصعاً وقوة في اللسان، تمكن صاحبه من ضرب المثل في موضعه ، ومن قوله في مكانه . والعادة أن يكثر الحكيم من الأمثال في كلامه ، لأنها المادة التي يستعين بهـا في إظهار حكمته وعقلـه ، يضيف عليها أمثالاً من عنده ، هي من وحي تجاربه وقوة ملاحظته .

وقد وردت كلمة (مثل) و (أمثال) في مواضع كثيرة من القرآن ، وفي ورود الكلمتين بهذه الكثرة دلالة بالطبع على ما كان للمثل من أهمية كبيرة عند الجاهليين . وفيه أمثلة كثيرة ضربت للعبرة والتذكر ، لتكون درساً يتعظ به أولو الألباب . ويلاحظ ان العرب يضعون لفظة (ضرب) قبل كلمة المثل في الغالب ، ورد في القرآن الكريم « ألم تر كيف ضرب الله مثـلاً »[1] ، و « ضرب الله مثلاً »[2] ، وورد « وضربنا لكم الأمثال »[3] ، و « فلا تضربوا لله الأمثال »[4] ، و « تلك الأمثال نضربها للناس »[5] ، وفي مواضع أخرى منه . وضرب المثـل ايراده ليتمثل به ويتصور ما أراد المتكلم بيانه للمخاطب . يقال : ضرب الشيء مثلاً وضرب به وتمثله وتمثل به . وضرب المثل اعتبار الشيء بغيره وتمثيله به[6] .

وقد أشاد العلماء بما للأمثال من أهميـة في الحث على إصلاح النفس ، فقال بعضهم : « انما ضرب الله الأمثال في القرآن تذكيراً ووعظـاً » ، وقال بعض آخر : « ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور كثيرة : التذكير ، والوعظ، والحث ، والزجر ، والاعتبار ، والتقرير ، وتقريب المراد من العقل ، وتصويره بصورة المحسوس ... الخ » . وروي ان الرسول قال : « إن القرآن نزل على خمسة أوجه : حلال ، وحرام ، ومحكم ، ومتشابه ، وأمثال . فاعملوا بالحلال ، واجتنبوا الحرام ، واتبعوا المحكم ، وآمنوا بالمتشابه ، واعتبروا بالأمثـال »[7] . وجعل (الماوردي) الأمثال من أعظم علم القرآن[8] .

---

١ ابراهيم ، الرقم ١٤ ، الاية ٢٤ .
٢ النحل ، الرقم ١٦ ، الاية ٧٥ وما بعدها ، ومواضع أخرى .
٣ ابراهيم ، الرقم ١٤ ، الاية ٤٥ .
٤ النحل ، الرقم ١٦ ، الاية ٧٤ .
٥ الحشر ، الرقم ٥٩ ، الاية ٢١ .
٦ تاج العروس (١/٣٤٧) ، (ضرب) .
٧ السيوطي ، الاتقان (٤/٣٨) .
٨ المصدر نفسه .

وللرسول أمثال كثيرة ، وذكر عن (عمرو بن العاص) ، أنـــه حفظ عن النبي ألف مثل[1] . ونجـــد في كتب الأمثال أمثالاً نسبت الى الرسول . منها : « إن من البيان لسحراً »[2] ، و « إن مما ينبت الربيعُ لما يقتل حبطاً أو يلم »[3] . و « إياكم وخضراء الدمن »[4] ، و « من كثر كلامه كثر سقطه »[5] ، و « أنصر أخاك ظالمـــاً أو مظلوماً » ، ويروى أنه من أمثلة أهل الجاهلية[6] . وقد نسبت أمثلة جاهلية أخرى الى الرسول .

والأمثال أقوال مختصرة ، يراعى في وضعها الايجاز والبلاغة والتأثير . وقـــد يكون المثل كلمتين ، وقد يكون أكثر من ذلك . ولكن العادة ألا يكون طويلاً ، لأن طول المثل يفقده روعته وتأثيره ، فلا يكون مثلاً ، ولا يمكن حفظه عندئذ فيضيع . ويراعى أن يكون سجعاً أو طباقاً . وأن يرتب في جمل متوازية بسيطة العبارة ، أو مزدوجـــة أو أكثر من ذلك قليلاً . وأن تكون هنالك مناسبة بين الجمل حتى يبدو المثل جميلاً متناسقاً .

والقاعدة في الأمثال الاّ تغير ، بل تجري كما جاءت . وقد جاء الكلام بالمثل وأخذ به وإن كان ملحوناً . لأن العرب تجري الأمثال على ما جاءت ، ولا تستعمل فيها الإعراب[7] . والأمثال قد تخرج عـــن القياس ، فتحكى كما سُمعت ، ولا يطرد فيها القياس ، فتخرج عن طريقة الأمثال . « قـال المرزوقي : من شرط المثل ألاّ يغير عما يقع في الأصل عليه »[8] .

وقال المرزوقي « في شرح الفصيح : المثلُ جملة من القول مقتضبة من أصلها أو مرسلة بذاتها ، فتتسم بالقبول ، وتشتهر بالتداول ، فتنقل عما وردت فيه الى كل ما يصح قصده بها من غير تغيير يلحقها في لفظها ، وعما يوجبه الظاهر الى

---

١ الاستيعاب (٢/٣٣٩) ، (حاشية على الاصابة) .
٢ العسكري ، جمهرة الامثال (١/١٣) .
٣ المصدر نفسه (١/١٦) .
٤ العسكري ، جمهرة (١/١٧) ، الميداني (١/٢١) ، المستقصي (١٨٠) .
٥ العسكري ، جمهرة (١/١٩) .
٦ العسكري ، جمهرة (١/٥٨) ، الميداني (٢/١٩٤) ، الفاخر (١٤٧) ، السيوطي ، الجامع الصغير (١/١٨٨) .
٧ المزهر (١/٤٨٧) ، (النوع الخامس والثلاثون . معرفة الامثال) .
٨ المزهر (١/٤٨٧ وما بعدها) .

أشباهه من المعاني ، فلذلك تُضرب وإن جهلت أسبابهـا التي خرجت عليها ، واستجيز من الحذف ومُضارع ضرورات الشعر فيها ما لا يستجاز في سائر الكلام »[1] .

ويلاحظ ان العرب قد أجازت لضارب المثل الخروج فيه على قواعد اللغة ، كما أجازت ذلك للشاعر بدعوى ضرورات الشعر ،ليستقيم الشعر مع القوافي والوزن . أجازته في المثل لأنه قد يصدر شعراً ، وقد يصدر سجعاً ، وقد يصدر من أفواه أناس جهلة لا يبالون بالقواعد ، أو ليس لهم عـلم بها ، وقد يصدر من قبيلة لا تتبع في لغتها قواعد الإعراب .

ونجد في كتب الأمثال وفي كتب الأدب أمثالاً وضعت لأغراض مختلفة، يغلب عليها الطابع التعليمي ، أي تعليم من يقرأها حكمة الحياة ، وتجارب الماضين حتى يُستفاد ويُتعظ . بعض منها نابع من محيط البداوة ومن الطبيعة الأعرابية ، وبعض منها تجارب عملية عامة تنطبق على كل الناس وتصلح لكل الأوقات[2] .

والأمثال عند بعض الشعوب صنف من أصناف الشعر ، لما فيها من الخصائص المتوفرة في الشعر عندهم . وقد روعي في المثل بصورة عامة أن يكون قصـيراً موجزاً وبليغاً معبراً عن حكمة ، فيه نغمة وترنيم . ليؤثر في النفوس . ويحمـل الطبع قائل المثل على مراعاة هذه الأمور من غير تفكير ولا تصنع ، وهـو إذا كان صادراً من قلب وسجية ، ومعبراً عن نفس جياشة وعن حس بشري عام، يشعر به كل إنسان تقبله الناس بسرعة ، ووجد له مجـالاً من الانتشار ، وعمر عمراً طويلاً .

والأمثال ، هي في صدر المؤلفات التي وضعها المسلمون ، فقـد روي : أن عبيداً بن شَرْيَةَ الجُرهمي ، وهو من أهـل (صنعاء) باليمن ، من أوائل المؤلفين في الأخبار وملوك العرب والعجم ، ألف كتاب (الأمثال) وقـد رآه (ابن النديم) في نحو خمسين ورقة . كذلك ألف صحار بن العباس العبدي ، وهو من بني عبد القيس ، وممن أدرك الرسول ، (كتاب الأمثال)[3] . وذكروا

---

١ المزهر (٤٨٦/١ وما بعدها) .
٢ الامالي (١١/٢ ، ٢٨ ، ٥١ ، ٧٧ ومواضع أخرى) ، المستطرف (٢٧/١ ومـا بعدها) ، المزهر (٤٨٨/١ وما بعدها) .
٣ الفهرست (ص ١٣٨) ، ابن الاثير (١٤٩/١) .

ان (عِلاّقة الكلابي) جمع الأمثال في عهد يزيد بن معاوية[1] ، وأن (المفضل الضبي) (١٦٨هـ) من مشاهير علماء الكوفة في الشعر واللغة ألف كتاباً في الأمثال دعاه : كتاب الأمثال[2] ، وأن أبا عبيد القاسم بن سلام (٢٢٣هـ) (٢٢٤هـ) ، ألف كتاباً في الأمثال كذلك[3] .

وألّف (يونس بن حبيب) (١٨٣ هـ) كتاباً دعاه (كتاب الأمثال)[4]، وألّف (أبو المنهال) كتاباً في الأمثال ، عرف بـ (كتاب الأمثال السائرة) وقف عليه (ابن النديم)[5] ، ولأبي عبيدة (٢٠٩ هـ) (٢١٠ هـ) (٢١١ هـ) كتاب في الأمثال ، عرف بكتاب الأمثال[6] ، وللأصمعي (٢١٧ هـ) كتاب في الأمثال كذلك[7] ، وللشورى ، وهو ممن أخذ عن الأصمعي كتاب في الأمثال[8] ، ولأبي اسحاق ابراهيم بن سفيان ، من تلامذة الأصمعي ، كتاب في الأمثال[9] . وألّف غير هؤلاء من العلماء كتباً في هذا الموضوع طبع بعض منها فنال شهرة ، مثل كتاب جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري (٣٩٥ هـ) ، وكتاب مجمع الأمثال للميداني (٥١٨ هـ)[10] ، وقد أخذ (أبو هلال العسكري) أمثالاً وردت في كتاب لحمزة الأصبهاني في الأمثال ، وهو كتاب توجد نسخة خطية منه في القاهرة[11] .

وبين المؤلفات في الأمثال رسالة لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا الرازي

---

١ الفهرست (٩٠) ، بروكلمن ، تأريخ الادب العربي (١/٢٦١) ، فجر الاسلام (ص ٦١) « الامثال » ، « الطبعة العاشرة » .
Wüstenfeld, Geschichtschr., 11, Goldziher, Muh. Stud., II, 204.

٢ الفهرست (١٠٨) .

٣ الفهرست (١١٢) .

٤ الفهرست (٦٩) .

٥ الفهرست (٧٨) .

٦ الفهرست (٨٥) .

٧ الفهرست (٨٨) .

٨ الفهرست (٩١) .

٩ الفهرست (٩٢) .

١٠ كارلو نلينو ، تأريخ الاداب العربية (٩٦) .

١١ العسكري ، جمهرة (١/٦) ، (حاشية رقم ٥) .

(٣٩٥ هـ) ، طبعت بعنوان : (كتاب أبيات الاستشهاد)[1] ، دوّن فيها بعض الشعر الذي استشهد به الناس في أمثالهم . ورسالة أخرى ألّفهـا (أبو العباس محمد بن يزيد المـبرد) الأزدي (٢٨٥ هـ) ، بعنوان : « رسالة في أعجاز أبيات تغني في التمثيل عن صدورها »[2] .

وهنالك مؤلفات عديدة أخرى ، وضعت في الأمثال . وفي إقبال المؤلفين على التأليف بها بهذه الكثرة ، دلالة على ما كان للمثل من أهمية ، وعلى ما كان له من قيمة في نظر أهل الجاهلية . حفظوه حفظهم للشعر ، بل أكثر من الشعر ، لأنه يرد على كل لسان ، يرد على لسان الحكيم البليغ كما يرد على لسان الغبي والجاهل ، ثم إنه توجيه وتربية وتعليم ، فلا نستغرب إذن إذا ما وجدنا كتب الأمثال في صدر الكتب التي ظهرت في الاسلام . وقد رأيت أنها ظهرت في عهد (معاوية) وبأمره ، فهي بحق من أوائل المؤلفات التي وصلت الينـا بالعربية . وكان معاوية مولعاً بسماع الأمثال والقصص وأخبار الماضين والشعر .

والأمثال ، هي أيضاً مادة مهمة لفهم التأريخ الجاهلي . فقد تعرض جامعوها لأصل المثل وللأسباب مضربه ، وجاؤوا بشروحهم هذه بمادة تأريخية استعنّا بها على فهم مواضع من ذلك التأريخ . ولكنا يجب أن نأخذ هـذه الأمثال وشروحها بحذر . ففي أكثر الشروح تكلف وضعف ، يدلان على عدم امكان الاعتماد عليها في تكوين حكم علمي .

ونجد في الأمثال الجاهلية أمثالاً ضربت بالناس ، مثل : أسخى من حاتم ، وأشجع من ربيعة بن مكدم ، وأدهى من قيس بن زهير ، وأعز من كليب وائل ، وأوفى من السموأل ، وحجام ساباط ، وقوس حاجب ، وغيرها . ونجد أمثالاً تمثل فيها بالبهائم ، وغير ذلك . ولكل مثل قصة تروي منشأ ضرب ذلك المثل وما وراءه من خبر . وهي تعبير عن روح الزمان الـذي قيـل فيه وعن نفسية المتمثلين به . وكثير من الأمثال الجاهلية ما زالت دائرة على ألسنة الناس . وفي وجودها دلالة على ان الأحوال التي قيلت فيها لا تزال قائمة ، ودليل ذلك اعتبار الناس بها والاستشهاد بها في المناسبات .

---

١ سلسلة نوادر المخطوطات (المجموعة الثانية) ، (١٣٧ وما بعدها) ، (تحقيق عبد السلام هارون) ، (القاهرة ١٩٥١ م) .

٢ نوادر المخطوطات (المجموعة الثانية) ، (١٦٣ وما بعدها) .

وبين أمثال العرب أشعار جاهلية الأصل صارت مثلاً ، ولا يزال بعض منها حي يضرب به مثل ، لما فيه من حكمة ومن ملاءمة لكل وقت وزمان[1]. وضرب المثل بعجز البيت أحياناً أو بجزء منه ، كما في المثل : « بعض الشر أهون من بعض » . فهو من بيت ينسب لطرفة هو :

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا حنانيك بعض الشر أهون من بعض[2]

ومن الأمثلة القديمة المشهورة حتى اليوم : (آخر الدواء الكي) ، و (آخر الطب الكي) ، زعم أنه من أمثلة (لقمان بن عاد) . وقد ذكر (الزمخشري) سبب ضرب (لقمان) له ، وأورد له كلاماً مع امرأة خانت زوجها ، وكلاماً مع زوجها وكيف عرفه فأرشده الى خيانتها له[3] . وأورد مثلاً ضرب بكثرة أكل (لقمان) ، هو: آكل من لقمان . وكانوا يزعمون أنه كان يتغدى بجزور، ويتعشى بأخرى ، ويتخلل بحوار . وانه ضاجع امرأته يوماً ، وقد أكل جزوراً ، وأكلت فصيلاً ، فما قدر على الإفضاء اليها ، فقال : كيف أفضي اليك وبيني وبينك بعيران[4] .

ويظهر من القصص المنسوب اليه ، أنه قد انتزع من قصص قديم ، كان معروفاً عند الجاهليين ، مروياً بينهم . فإذا أعدنا قصته المذكورة مع المرأة ، وقد رواها (ابن الكلبي) عن (عوانة)[5] نجدها وقد غصت بالأمثلة ، وبطريقة الجاهليين في التفسير والتعليل ، مما يجعل الإنسان يرى أنها من القصص الجاهلي القديم ، الذي احتفظ بمعناه ومضمونه ، وإن صيغ بلغة حاكيه .

ورووا لقس بن ساعدة الايادي ، أمثالاً ، منها : إذا خاصمت فاعدل ، وإذا قلت فاصدق ، ولا تستودعن سرك أحداً ، فإنك ان فعلت لم تزل وجلاً ، وكان بالخيار ، إن جنى عليك كنت أهلاً لذلك ، وان وفى لك كان الممدوح

---

١ المستطرف (١/٣٠ وما بعدها) .
٢ العسكري ، جمهرة (١/٦٧) .
٣ الزمخشري ، المستقصى في أمثال العرب (١/٣) ، (حيدر اباد الدكن ١٩٦٢ م) ، العسكري ، جمهرة (١/٩٧ ، ٤٢٦) .
٤ المصدر نفسه (ص ٧) .
٥ العسكري ، جمهرة (١/٤٢٤ وما بعدها) .

دونك . وكن عف العيلة ، مشترك الغنى تسد قومك . الى غير ذلك من أمثال نسبوها اليه[1] .

وفي (كتاب الجوهرة في الأمثال) من (العقد الفريد) ، باب خاص عنوانه : « أمثال أكثم بن صيفي وبزرجمهر الفارسي »[2] . وهي تستحق الدرس والنقد ، لمعرفة أصولها وعلاقة هذه الأمثال بالأدبين العربي والفارسي .

ونجد في كتب الأدب طائفة من الأمثال في الأدب والحكمة ، نسبت الى (أكثم بن صيفي) ، منها : ربّ عجلة تهب ريثاً ، وادرعوا الليل فإن الليل أخفى للويل ، والمرء يعجز لا المحالة ، ولا جماعة لمن اختلف ، ولكل امرىء سلطان على أخيه حتى يأخذ السلاح فإنه كفى بالمشرفية واعظاً ، وأسرع العقوبات عقوبة البغي ، وشر النصرة التعدي ، ورب قول أنفذ من صول ، والحر حر وإن مسه الضر ، والعبد عبد وإن ساعده الجد ، واذا فزع الفؤاد ذهب الرقاد ، وربّ كلامٍ ليس فيه اكتتام ، وحافظ على الصديق ولو في الحريق ، وليس من العدل سرعة العذل ، وليس بيسير تقويم العسير ، واذا بالغت في النصيحة هجمت بك على الفضيحة ، ولو أنصف المظلوم لم يبق فينا ملوم[3] .

وليس في امكان أحد اثبات ان هذه الأمثال وغيرها هي لأكثم بن صيفي حقاً ، وبينها أمثال انسانية عامة نجدها عند مختلف الأمم ، وبينها أمثال قيلت في اليونانية وفي بعض اللغات الأخرى قبل أيام (أكثم) بزمان طويل . إلا ان نسبة هذه الأمثال اليه ، تشير الى انه كان من حكماء الجاهلية البارزين ومن ذوي الرأي والحكمة عند قومه .

والأمثال النابعة من صميم الحياة الانسانية ومن التجارب العملية ، والاختبارات الطويلة ، تكون ذات طبيعة حكيمة عامة ، فتظهر لذلك عند كل الناس ، وتخرج على كل لسان ، فلا يمكن أن يقال إنها من مخترعات الأمة الفلانية ، ومن مبتكرات العقل الفلاني ، لأنها كما قلت خواطر إنسانية ، تخطر على بال كل

---

١ العسكري ، جمهرة (٢٤٩/١) ، الميداني (٧٣/١) .

٢ العقد الفريد (٦٣/٣ وما بعدها) ، ومن أمثاله : « مقتل الرجل بين فكيه » و « ربما أعلم فأذر » ، يريد أنه يدع ذكر الشيء وهو به عالم لما يحذر من عاقبته ، العقد الفريد (٨١/٣) .

٣ المزهر (٥٠١/١ وما بعدها) .

شخص ، له رأي سديد ، وفكر صائب . وإن نسبت الى شخص معين ، لذلك يصعب علينا إرجاع الأمثال الانسانية العامة الى جماعة معينة . قال (الجاحظ) : وقد كان الرجلُ من العرب يقف الموقفَ فيرسل عدة أمثلة سائرة ، ولم يكن الناس جميعاً ليتمثلوا بها إلا لما فيها من المرفق والانتفاع ؛ ومدار العلم على الشاهد والمثل »[1] .

ومن أمثال أهل الجاهلية : إن من البيان لسحراً ، وإن الجواد قد يعثر ، وان البلاء موكل بالمنطق ، وان أخا الهيجاء من يسعى معك ومن يضر نفسه لينفعك . وأنف في السماء وأنف في الماء . وأجع كلبك يتبعك ، واشتدي أزمة تنفرجي ، وربَّ رمية من غير رام ، وربَّ أكلة تمنع أكلات ، واستراح من لا عقل له ، وسبق السيف العذل ، الى غير ذلك من أمثلة[2] .

ومن الأمثال الجاهلية الباقية حتى اليوم المثل : مواعيد عرقوب ، مثل يضرب لمن يعد ولا يفي . فقد ورد في شعر المتلمس ، إذ قال :

الغـــدر والآفات شيمته فافهم فعرقوبٌ له مثل

وورد في شعر كعب بن زهير :

كانت مواعيد عرقوب لها مثلاً وما مواعيدهـــا إلا الأباطيـــل

قيل : عرقوب رجل من خيبر ، كان يهودياً وكان يعد ولا يفي ، فضربت به العرب المثل . وقيل : رجل من العماليق أتاه أخ له يسأله فقـــال له عرقوب : إذا أطلعت هذه النخلة فلك طلعها . فلما أطلعت أتاه للعدة ، فقال : دعها حتى تصير بلحاً ، فلما أبلحت قال : دعها حتى تصير زهواً ، فلما أزهت قال : دعها حتى تصير رُطباً ، فلما أرطبت قال : دعها حتى تصير تمراً ، فلما أتمرت عمد اليها عرقوب من الليل فجذّها ، ولم يعطِ أخاه منه شيئاً ، فصار مثلاً ، وفيه يقول الأشجعي :

وعدتَ وكان الخُلف منك سجيةً مواعيـــد عُرقُوب أخـــاه بيثرب

---

١ البيان والتبيين (١/٢٧١) .
٢ المستطرف (١/٢٨ وما بعدها) .

وقال آخر :

وأكذب من عرقوب يثرب لهجةً وأبين شؤماً في الحوائج من زُحل[1]

وذكر ان اسمه (عرقوب بن صخر) ، أو (عرقوب بن معبد (معيد) بن أسد) ، رجل من العمالقة على القول الأول . قاله ابن الكلبي ، وعلى القول الثاني ، فهو رجل من (بني عبد شمس بن سعد) ، وقيل انه كان من الأوس . كان أكذب أهل زمانه ، ضربت به العرب المثل في الخلف ، فقالوا : مواعيد عرقوب[2] .

ومن الأمثال القديمة : صحيفة المتلمس ، روى ان الرسول كتب كتاباً لعيينة بن حصن ، فلما أخذه ، قال : « يا محمد أتراني حاملاً الى قومي كتاباً كصحيفة المتلمس ». هي احدى الصحيفتين اللتين كتبهما (عمرو بن هند) لطرفة والمتلمس ، الى عامله بالبحرين في إهلاكهما ، وخيّلها انهما كتابا جائزة ، فنجى المتلمس عمله على الخرم وهربه الى الشأم ، وسارت صحيفته مثلاً في كل كتاب يحمله صاحبه يرجو منه خيراً وفيه ما يسوءه[3] .

ومن الأمثلة القديمة (عنقاء مغرب) ، والمثل به « طارت به عنقاء مُغرِبٌ » زعموا انه طائر كان على عهد (حنظلة بن صفوان الحميري) نبي أهل الرس عظيم العنق ، وقيل كان في عنقه بياض ولذلك سمي عنقاء،اختطف غلاماً فأغرب به ، ولذلك سمي المغرب ، فدعا عليه حنظلة فرمى بصاعقة . وقد ذكر المثل في الشعر[4] .

ومن الأمثال الجاهلية الحية التي لا تزال ترزق ، المثل : « تسمع بالمعيدي خيرٌ من أن تراه » . يضرب مثلاً لمن خبره خير من مرآه . ذكر (ابن الكلبي) ان هذا المثل ضُرب (للصقعب بن عمرو) النهدي . قاله له النعمان بن المنذر . وقال (المفضل) : المثل للمنذر بن ماء السماء ، قاله لشقة بن ضمرة سمع بذكره، فلما رآه اقتحمته عينه فقال : تسمع بالمعيدي خير من أن تراه ، فأرسلها مثلاً

---

١ المزهر (١/٤٩٤ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (١/٣٧٨) ، (عرقب) .
٣ الفائق (٢/١٣) .
٤ الزمخشري ، المستقصي (٢/١٥٠) .

فقال : له شقة : أبيت اللعن ! إن الرجال ليسوا بجُزر يراد منهم الأجسام ، وانما المرء بأصغريه قلبه ولسانه فذهب مثلاً ، وأعجب المنذر بما رأى من عقله وبيانه ، ثم سمّاه باسم أبيه فقال: أنت ضمرة بن ضمرة . وقيل إن المثل للنعمان ابن المنذر ، قاله لشقة بن ضمرة[1] .

وقد أورد (ابن الكلبي) قصة تأريخ المثل على هـذا النحو : قال : وفد (الصقعب بن عمرو) النهدي في عشرة من (بني نهد) على (النعمان بن المنذر) وكان (الصقعب) رجلاً قصيراً دميماً تقتحمه العين ، شريفاً بعيد الصوت ، وكان قد بلغ النعمان حديثه ، فلما أخبر النعمان بهم قال للآذن : إئذن للصقعب ، فنظر الآذن الى أعظمهم وأجملهم ، فقال : أنت أنت الصقعب ؟ قال : لا . فقال : الذي يليه في العظم والهيئة : أأنت هو : فقال : لا . فاستحيا فقال : أيكم الصقعب ؟ فقال الصقعب : هأنذا ! فأدخله الى النعمان ، فلما رآه قال : تسمع بالمعيدي خير من أن تراه ! فقال الصقعب : أبيت اللعن ! إن الرجال ليسوا بالمسوك يستقى فيها ، انما الرجل بأصغريه بلسانه وقلبه ، إن قاتل قاتل بجنان ، وإن نطق نطق ببيان . فقال له النعمان : فلله أبوك ! ثم سأله أسئلة امتحنه بها ، ليرى عقله ، فكان يجيبه أحسن جواب . فقال له النعمان : أنت أنت ! فأحسن صلته وصلة أصحابه[2] .

وينسب المثل : « ألوى بعيد المستمر » ، الى (النعمان بن المنذر)، وأخوه (طُفيل الغنوي) فأدخله شعره[3] . ومن الأمثلة الشهيرة القديمة قولهم : « على أهلها جنت براقش » ، يضرب مثلاً للرجل يهلك قومه بسببه[4] .

وينسب المثل : « إن الشقي وافد البراجم » لعمرو بن هند ، ملك الحيرة، حلف ليقتلن مائة من تميم ، فقتل تسعة وتسعين رجلاً منهم إحراقاً بالنار، وبقي واحد ، فلما دنا رجل من البراجم من الملك ، وسأله عن أهله ، فقـال : من

---

١ الخزانة (١/١٥١) ، (بولاق) .
٢ المزهر (١/٤٩٥ وما بعدها) ، العمدة (١/٢٨٥) .
٣ ألفيتني ألوى بعيد المستمر أحمل ما حملت من خير وشر
العسكري ، جمهرة (١/٣٢ وما بعدها) .
٤ العمدة (١/٢٨٥) .

البراجم ، قال : إن الشقي وافد البراجم ، وأمر به فألقي في النار[1] .

ومن الأمثال المشهورة قولهم : « عند جهينة الخبر اليقين » . وقيل : « عند جفينة الخبر اليقين » (جُفينة) . وكان من حديثه أن (حصين بن عمرو بن معاوية بن عمرو بن كلاب) خرج،ومعه رجل من (جهينة) يقال له (الأخنس) فنزلا منزلاً ، فقام الجهني الى الكلابي فقتله ، وأخذ ماله ، وكانت أخته (صخرة) بنت (عمرو) تبكيه في المواسم ، وتسأل عنه فلا تجد من يُخبرها، فقال الأخنس فيها :

كصخرة إذ تسائل في مِراح وفي جَرْمٍ وعلمها ظنونُ
تسائل عن حصينٍ كل ركب وعند جهينة الخبر اليقينُ[2]

ومن أمثالهم المشهورة قولهم : بمثل جارية فلتزن الزانية ، وذلك أن (جارية بنت سليط بن الحرث بن يربوع بن حنظلة) كان أحسن الناس وجهاً وأمدهم قامة ، وأتى سوق عُكاظ فأبصرته فتاةٌ من خثعم فأعجبها فتلطفت له ، حتى وقع عليها ، فعلقت منه ، فلما ولدت أقبلت هي وأمها وخالتها تلتمسه بعكاظ ، فلما رأته الفتاةُ قالت : هذا جارية ! فقالت أمها : بمثل جارية فلتزن الزانية سراً أو علانية ، فذهب مثلاً[3] .

ونسب المثل : « أرسل حكيماً ولا توصه » الى (الزبير بن عبد المطلب)[4]، ونسب المثل « استنوق الجمل » لطرفة بن العبد[5] . ومن الأمثلة القديمة : « على أهلها دلت براقش » ، و « عش رجباً تر عجباً »[6] ، و « العصا من العصية» و « أعز من كليب وائل » ، و « أعزّ من بيض الأنوق » و « أعز من

---

١ العسكري ، جمهرة (١/١٢١) ، (يذكر ٩٨ شخصا ، ثم يتم العدد ، بذكر هذا الرجل ، ثم اكمله بالحمراء بنت خمرة ، حيث أحرقها ، وتحلل من يمينه ، وتذكر الموارد الاخرى خلافه . وقد تحدثت عن هذا المثل) .

٢ المزهر (١/٤٩٨ وما بعدها) ، العسكري ، جمهرة (٢/٤٤) .

٣ المزهر (١/٤٩٩) .

٤ العسكري ، جمهرة (١/٩٨) .

٥ العسكري ، جمهرة (١/٥٤) ، الاغاني (١/١٣٢) ، الشعر والشعراء (١/١٣٥)

٦ العسكري ، جمهرة (٢/٥٢ وما بعدها) ، الميداني (١/٣١٠) ، الحيوان (١/٢٦٠) ، العقد الفريد (٣/٥٤) .

الغراب الأعصم » ، و « أنصف القارة من راماها » . والمثل : « أرسل حكيماً ولا توصه » ، هو في الواقع مثل قديم ، لا بد وأن يكون قد وضع في العربية، قبل أيام (الزبير) ، إذ ينسب الى الحكيم (أحيقار) ، وربما نقل من السريان الى العرب .

وقد ضرب المثل بشخصيات جاهلية ، تركت أثراً في أيامها ، فضرب بهـا المثل . مثل : « أبلغ من قس » ، ويراد به قس بن ساعدة الخطيب الشهير ، وأعيا من باقل . وهو رجل من إياد ، وقيل من ربيعـة . اشترى ظبياً بأحد عشر درهماً ، فمرّ بقوم فقالوا له : بكم اشتريت الظبي ؟ فمدّ يديه وأخرج لسانه يريد أحد عشر ، فشرد الظبي حين مد يديه ، وكان تحت ابطيـه[1] . وضرب المثل ببخل مادر ، فقيل : أبخل من مادر ، وبفصاحة سحبان ، فقيل : أخطب من سحبان ، وهو القائل :

لقد علم الحي اليمانون أنني اذا قلت أما بعد أني خطيبها[2]

وضرب الجاهليون الأمثال بكل ما وجدوه حولهم من حيوان ومن نبات وصخور. ولذا نجد على أمثالهم طابع محيطهم ، فالحيوان الذي ضربوا به المثـل ، هو من حيوان جزيرة العرب ، ومن النوع المألوف عندهم ، مثل الضب والحية والعنز والإبل وما الى ذلك . ومن هنا اختلفت أمثلة الأعراب أهـل البادية عن أمثلة الحضر ، أهل المدر ، لاختلاف طبيعة البادية عن طبيعة الريف ، ولوجود أشياء في أحدهما يندر وجودها في المحيط الآخر .

وفي شعر (عدي بن زيد) العبادي أمثلة كثيرة ، تميز شعره عن شعر بقية الشعراء الجاهليين . ولو درسنا شعره ، نجد أن فيه مـا يشير الى مواعظ ترد في النصرانية كما ترد على خاطر كل إنسان يصاب بنكبة ، فتهز مشاعره فتجعله ينظر الى الدنيا نظرة زاهد فيها ، ولا استبعد احتمال تأثره بالكتب التي كان قد وقف عليها ، فقد كان نصرانياً « وقد قرأ كتب العرب والفرس »[3] . ولم يذكر أهل

---

١ المزهر (١/٥٠٣) .
٢ المزهر (١/٥٠٤) .
٣ الطبري (٢/١٩٣) ، (دار المعارف) .

الأخبار شيئاً عن (كتب العرب) ، هل أريد بها كتب دينية وضعت في العربية، أم قصد بها كتب في القصص والأمثال وفي الشعر والأخبـــار وما شابه ذلك ، ولعلهم أرادوا بكتب الفرس ، الكتب التي تبحث عن قصص ملوكهم . وقـــد ترجم قسم منها في الاسلام ، وقصص الأساطير . وقد رأينا أنها كانت معروفة عند العرب وان (النضر) كان يقص منها لأهل مكة ، وكانوا يسمونها الأساطير.

ونجد في شعر الشعراء الآخرين أمثلة عديدة دخلت شعرهم ، أخذوها مـــن المثل السائر ، ومن الحكم التي كانت شائعة في أيامهم ، أو من القصص ، أو من مبتكراتهم ومخترعاتهم ، ولا تزال بعض الأمثال الشعرية حية ترزق ، يضرب بها الناس المثل فيما يريدون التمثيل به .

ومن الموارد التي أمدّت الأدب الجاهلي بالمثل ، الكهان ، وكلام الكهان قصير مسجع يميل الى الرمز والألغاز ، يتجنب الصراحة ، لتكون فيـــه قابلية التفسير والتأويل واعطاء كثير من الاحتمالات ، وذلك لما تقتضيه طبيعة الكهانة من تأويل التكهن حسب الأحوال والمناسبات . ونجد في كتب الأدب أمثلة عديدة منسوبة الى هؤلاء الكهان . ولما كان كلامهم مسجوعاً ، قيل له : « سجع الكهان » . وقد جاء في الحديث النبوي : « هذا من سجع الكهان »[1] . وفي الكهان جماعـة من الكاهنات ، عرفن بالتكهن ، مثل : الشعثاء الكاهنة ، وطريفة ، ويذكرون انها هي التي أنذرت عمرو بن عامر أحد ملوك اليمن بزوال ملكه ، وأخبرته بخراب سد مأرب[2] ، وزبراء الكاهنة[3] ، وسلمى الهمدانية الحميرية[4] ، وعفيراء الكاهنة الحميرية[5] ، وفاطمة بنت مر الخثعمية ، وقد ذكروا انها كانت قد قرأت الكتب[6].

ومن الأمثلة الواردة في كتب الأدب : « إن العصا من العُصية » ، وهـــو مثل ينسب الى (الأفعى الجرهمي) ، وهو من الكهّان . قاله لما احتكم اليه أولاد (نزار) بمدينة النجران[7] . و « الصيف ضيعت اللبن » ، وأول من قاله (عمرو

---

١ بلوغ الارب (٣/٢٧٢) .
٢ بلوغ الارب (٣/٢٨٣ وما بعدها) .
٣ بلوغ الارب (٣/٢٨٨ وما بعدها) .
٤ بلوغ الارب (٣/٢٩٥ وما بعدها) .
٥ بلوغ الارب (٣/٢٩٦ وما بعدها) .
٦ بلوغ الارب (٣/٣٠٥ وما بعدها) .
٧ نهاية الارب (٣/٧ وما بعدها) .

ابن عدس)[1] ، والمثل « أوسعتهم سباً وأودوا بالابل » وينسب الى (كعب بن زهير بن أبي سلمى)[2] ، والمثل « ان الشقي وافد البراجم »[3] . الى غير ذلك من أمثلة تجدها في كتب الأمثال والأدب . ولا يزال بعضها حياً يتمثل الناس به. وبعض منه يرد على لسان كل إنسان . أي أمثلة تنطبق على كل البشر ، لأنهـا صادرة من نفس انسانية عامة،فلا تعدّ من الأمثلة المحلية أو القومية ، أي أمثلة نبعت من محيط أمة معينة . لذلك نجد لها شبهاً عند أمم أخرى . ولا نستطيع أن نقول إن الأمة أخذتها من تلك .

---

١ نهاية الارب (٣/١٣ وما بعدها) .
٢ نهاية الارب (٣/١٧) .
٣ نهاية الارب (٣/١٨) .

obeikandl.com